قراءة نفسيّة للحركات التكفيريّة

الدكتور أحمد ماجد

الكلمات المفتاحيّة: أحمد ماجد، الإنسان، الذات، العنف، التكفير، الرمزيّة، الرمز، الجسد.

الحركات التكفيريّة منذ بدأت بالظهور في العصور الحديثة، كانت ردّة فعل إزاء الواقع الخارجيّ والتحدّيات التي أثارتها الحداثة في وجهها، والذي لم تستطع تحويله رمزيًّا لكي تتعايش معه، أي لم تستطع أن تقوم بفعل اجتهاديّ تأويليّ له، فبترت هذا الواقع واعتبرته لا يتلاءم مع الرمز والمخيال الذي تعيشه فسعت إلى تحطيمه، وتحدّثت عن العودة إلى الأصول بشكل هذيانيّ باعتباره رجوعًا إلى زمن البدء لعيش تجربة الوحيّ بكلّ تمثّلاتها.

وهذا الحضور أرادته جسديًّا وحسّيًّا، فقامت بنفي الاستعارات والتأويلات، فكان حضورها نبويًّا، فهي تؤمن بأنّها الأمينة على الوحي الناطقة باسمه، المتكلّمة بلسانه، من هنا أصبحت مالكة للحقيقة، عبر القبض على الرمز الدينيّ المدعّم بمخيال يتألّف من صور وقوّة اجتماعيّة ضخمة مهمّتها إعادة تنشيط الصورة الموجودة لدى الإنسان بصفتها حقائق رائعة وقيمًا لا تُناقش، فالرمز المدعّم بمخيالها تحوّل إلى هويّة ذاتيّة لديها، وهذه الهويّة في مبتناها العامّ جسمانيّة مجسّدة من خلال حضور التكفيريّ في العالم، ممّا يعني أنّها لا تستطيع أن ترى العالم إلّا من خلال ذاتها بما هي حضور في العالم، لذلك رفضت كلّ ما لا يتلاءم معها ونفته، وفي هذا السياق لم يعد بالإمكان تصوّر الدين باعتباره منظومة متكاملة تتعدّى الواقع الطبيعيّ المعيش إلى جوانب لا يمكن تبريرها والحديث عنها إلّا من خلال تأويلها والتفكّر بمحتواها.

فالتكفيريّون رموا الآخر خارج سياقات الذات، واعتبرته مارقًا ومنحرفًا وعليها تقع مسؤوليّة تصويب اتّجاهه ودفعه إلى الإيمان النقيّ والأصيل الذي يتمثّل بهم باعتبارهم حاملين للوحي على حقيقته، مع العلم أنّ كلّ ما يتكلّمون به أو يعيشونه لا يتعدّى كونه مخيالًا ذاتيًّا مرضيًّا في بعض الأحيان، وإذا عدنا إلى صور بعض الحركات التكفيريّة، نلاحظ أنّها بدأت باكرًا بالحديث عن ضرورة القيام بعزلة نفسيّة عن المجتمع، ثمّ طوّرت هذه المقولة في وقت لاحق للحديث عن العزلة الواقعيّة وتكفير المجتمع والاعتزال عنه.

وهذا ما جعل العلاقة بين التكفيريّين والعالم مضطربة يشوبها التشويش، فهي تقوم على اعتبار أنّ ما تنتجه هذه الذات من الرموز تمثّل حقيقة النبوّة والدعوة، وهي بقوّة النصّ الأصليّ، بالتالي، يصبح الحضور في العالم أصلًا، واللغة بما هي دالّة حرفيّة على الوقائع المنهج الوحيد للتفسير، وكلّ ما يخالف هذه الأصول شاذّ وغير مبرّر،

وهذا دون شكّ ما سمح لها بإنتاج جسد جماعيّ متماسك، ولكنّ هذا الجسد المتماسك يعاني من أزمة وجوديّة، لأنّها جعلت الجماعة متماهية مع الصورة الرمزيّة، التي رسمتها لنفسها وما فيها من عالم الكمال والقدرة على إنتاج المعاني التامّة والنهائيّة، وهذا ما يجعل كلّ قراءة أخرى خارجة عن الأصل متلاعبة به، ممّا يعني ضرورة تصويبها، وهذه الرؤية أفسحت المجال أمام الذات للتدخّل في الصور الأخرى التي نمت في المجتمع الإسلاميّ، وجعلتها تراه صور بحاجة إلى التغيير لإنتاج صورة تعكس شكلًا موحّدًا متكاملًا، لا ينقصه شيء، وسعادة الإنسان لن تتمّ إلّا من خلال هذه التماميّة الباتّة، وبمعزل عن هذا الأمر لا يستطيع الإنسان أن يشعر بالبهجة والانشراح.

وهذا التصوّر للذات جعل التكفيريّ يعيش أسيرًا لأناه، يركض وراءها، ولن يتمّ هذا الأمر إلّا من خلال القضاء على الآخر الذي ينافسه على الرمز، من هنا أخذت تنمو في شخصيّته ضرورة إفناء الرمز الخارجيّ بكلّ تمثّلاته إنسان/ حضارة/ مقام/ تكيّة، فتصاعد العنف التكفيريّ بحقّ كلّ من يختلف عنه، وهذا العنف لا يمكن أن يتوقّف إلّا بإفناء الذات أو إفناء الآخر، وهذا ما ينعكس من خلال العمليّات الانتحاريّة التي تعكس هذا المنهج من التفكير.

فالرمز الذي فقد القدرة التفسيريّة أو التأويليّة للواقع، لم يعد يستطيع أن يبدع تصوّرات جديدة للعالم، فهو يعيش حالات طفوليّة تدرك البعد المادّيّ والجسديّ، ولكنّه يتصوّر أنّ العالم لا بدّ من أن يمثّل بين يديها وعلى الطريقة التي تراه فيها، فهي بمقوّماتها لا تستطيع أن تنظر إلى العالم باتّساعه وتنوّعه، فبقيت تدور حول نفسها، لا ترى ما يتعدّاها.

ولذلك يلاحظ أنّ التكفيريّ يقوم بمسرحة الجسد عبر جعله الأصل الذي يظهر علائم الجماعة المنتمية كالمظهر والملبس، كما يظهر المكان الخاصّ بالفعل، من هنا لا يكفّ التكفيريّ عن تقديم نفسه للعموم من خلال علاقات جسديّة، تتحوّل إلى وشمٍ مميّز للذات، ومحوٍ وبتر وقطع للآخر، وهذا ما يجعل هتك الجسد أو المقام أو الحضارة أمرًا مبرّرًا بالنسبة إليه، وكلّما كان الرمز قريبًا من رمزهم ازداد العنف الممارَس على صاحبه، لأنّ الرمز المولّد شوّه الأصل وتحوّل إلى صورة جزئيّة ناقصة، بالتالي فقتل المسلم بعنف أو تشويهه خدمة له لأنّه يساهم في وعي انحرافه وعودته إلى الأصول، وهنا تصبح التضحية بالأجساد ضرورة لأنّ هذه التضحية قد تؤدّي إلى رفع الضرر عن الجماعة، فيبقى جسدها حيًّا باعتباره تجسيدًا للأصل.

فالتكفيريّ قدّس الجسد الخاصّ، فأصبح متعاليًا ونظّم العالم على شكل مقولات اسميّة يمكن تعريفها واستعراضها وترميزها والحديث عنها، وكلّ ما لا ينتمي إلى سياقه الخاصّ يمكن بتّه أو فصله بأيّ شكل من

الأشكال، وهو في ذلك وإن كان ردّة فعل على سياق الحضارة الغربيّة وعلمويّتها إلّا أنّه لا يخرج عن سياقات هذه الحضارة نفسها بما هي مكوّن يقوم على المادّة كعنصر مؤسّس وإن كانت الأولى وعت ما تقوم بقيت الثانية لاواعية في حركتها.